

السياق بين النظرية والتطبيق (سورة الأنعام أنموذجا)



□
□
□ محمد عبد الرحمن محمد عودات^(*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله الذي نصب للحق دليلاً، والصلاة والسلام على الصادق الأمين، رسولنا محمد وعلى آله وصحبه الأئمة، وبعد:

فإن السياق يعد باباً مهماً يؤدي إلى الفهم السليم عن الله ورسوله بما يحقق حسن التطبيق لأوامر الشريعة، يقول الإمام ابن القيم مقررًا لهذه القاعدة الجلية: "السياق يرشد إلى تبين المحمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}^(١) كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق^(٢)."

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد في قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب - جامعة الملك فيصل بالإحساء - المملكة العربية السعودية.

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٢) ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، تمويل مؤسسة سلمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ٤، ص ١٣١٤.

فإذا كان التركيب موجوداً داخل النص، فإن الدلالة توجد داخل السياق، فالكلمات الثلاث الواردة في الآية الكريمة: ذق، العزيز، الكريم تستعمل لمعنى الإكرام في المعاجم اللغوية، في حين أن المقصود بها في السياق القرآني هو ضد الإكرام، ولذلك فإن المراد بها في السياق القرآني المحدد هنا هو الإهانة، قال ابن عاشور رحمه الله: "والذوق مستعار للإحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة، وقوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} ^(١) خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية، والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي" ^(٢).

فسياق الآية الكريمة ولحاقها يتحدث عن الكافر الآثيم، قال الله تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} {٤٠} {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} {٤١} {إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} {٤٢} {إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ} {٤٣} {طَعَامُ الْآثِيمِ} {٤٤} {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ} {٤٥} {كَغَلِي الْحَمِيمِ} {٤٦} {خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ} {٤٧} {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} {٤٨} {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} {٤٩} {إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} {٥٠} ^(٣).

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: "فإن قال قائل: وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله، ويذل بالعتل إلى سواء الجحيم: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}؟ ^(٤) قيل: إن قوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} ^(٥) غير وصف من قائل ذلك له بالعزة والكرم، ولكنه تقرير منه له بما كان يصف به نفسه في الدنيا، وتوبيخ له بذلك على وجه

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ٢٥، ص ٣١٦.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٤٠ - ٥٠.

(٤) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

الحكاية، لأنه كان في الدنيا يقول: إنك أنت العزيز الكريم، فقليل له في الآخرة، إذ عذَّب بما عذَّب به في النار: دُق هذا الهوان اليوم، فإنك كنت تزعم إنك أنت العزيز الكريم، وإنك أنت الذليل المهين، فأين الذي كنت تقول وتدعي من العزِّ والكرم، هلا تمتنع من العذاب بعزَّتكَ" (١)

وقد آثرت أن يكون بحثي هذا في تجلية البعد التطبيقي لنظرية السياق القرآني في سورة الأنعام، لما نراه من كون حقل الدراسات القرآنية يتعرض اليوم لهجمات شرسة يشنها كتاب على سلامة القرآن الكريم من الإشكالات اللغوية والواقعية، فرموا النص القرآني المجيد بالتنافر والتناقض والاختلاف، ناثين بأنفسهم عن الأصول التفسيرية التي تعصم متقنها من مزلة القدم في القول بالقرآن الكريم بغير علم، ومن أهم هذه الأصول التفسيرية التي غفل الطاعنون عنها، أو أغفلوها قاعدة السياق القرآني بنوعيه:

الأول: السياق الدلالي، هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، عندما تتساق مع كلمات أخرى، مما يكسبها معنى خاصاً محدداً، فالمعنى في السياق الدلالي مغاير للمعنى الذي يقدمه المعجم، لأن المعنى المعجمي متعدد ومحتمل، في حين أن المعنى الذي يقدمه السياق الدلالي اللغوي هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو التعميم.

الثاني: السياق المقامي، يدل هذا السياق على العلاقات الزمانية، والمكانية التي يجري فيها الكلام، وقد أسس علماء المسلمين من المفسرين، والأصوليين، واللغويين لهذا النوع من السياق، فعبر عنه البلاغيون بمصطلح (المقام) وقد أضحت كلمتهم ((لكلِّ مقام مقال)) مثلاً مشهوراً.

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م، ج: ٢١، ص ٦١ - ٦٢.

إن مراعاة المقام تجعل المتلقي على قدر كاف من الوعي لإدراك مرامي الكلام الذي قصده صاحبه، وفي تقرير ذلك يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران: أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطب، أو المخاطب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كاستفهام لفظه واحد، ويدخله معانٍ آخر من تقرير، وتوبيخ، وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة، والتهديد، والتعجيز، وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترب بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال"^(١).

ولم أرد لهذا البحث أن يكون ردة فعل بوجه تلك السهام الطائشة، فلذلك الغرض رواه وبحاله، والذي هدفت إلى إبرازه هو دور السياق الشمولي (القريب والبعيد) بعد إتقانه وإحكامه في تنقية النتائج التفسيرية وتنقيحه مما نُسب إليه من الأقاويل المدخولة، والروايات المردودة.

(١) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الشريعة، حرر دعاويه، وكشف مراميه، وخرج أحاديثه، ونقد آرائه عبد الله دراز، ضبطه ورقمه ووضع تراجمه، الدكتور محمد عبد الله دراز، المطبعة الرحمانية، القاهرة، مصر، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ٣، ص ٣٤٧.

ومما أثار دأعيتي للمضي في هذا البحث أنه وبحسب اطلاع الباحث لم يفرد بدراسة تطبيقية مستقلة تنتظم سورة قرآنية كاملة تشفع النظرية بالتطبيق، وتبين السياق الشمولي ذا الشعب المتعددة المشتمل على النظم الخاف بالآية من السياق واللاحاق، والسياق الجامع للسورة القرآنية الكريم (الوحدة الموضوعية للسورة)، والسياق الكلي للقرآن الكريم (القرآن الكريم وحدة واحدة)، والسياق العام للمنظومة الإسلامية المستوعب لمقاصد الشريعة الكلية (روح الإسلام).

وحاولت أن أبرز المنهج السياقي خاصة في نطاق السورة القرآنية الكريمة على جهة الاستقلال، (الوحدة الموضوعية للسورة) وغرضها المركزي وأثره في الموازنة بين الوجوه الراجعة والمرجوحة في نطاق تفسيرها، بما يظهر تميز جهود العلماء المسلمين من مفسرين، وأصوليين، ولغويين في خدمة القرآن الكريم، مما يعود بالنفع على الحياة الإنسانية ومعالجة أهم قضاياها، وهي قضية العقيدة الناصعة ممارسة ومحاجة، فهي أول سورة في هذا المنهج وأوفاهها، حيث بسطت الحجة على عظمة الله تعالى وبديع صنعه وكامل قدرته، وأقامت الدليل على وحدانيته عز وجل، كل ذلك لنستبدل حال الأمة بما وصلت إليه من اختلال نظام الفرد والجماعة بحال يجعلها تسير في طريق النجاة من فتن الدنيا وعذاب الآخرة، فتحيا حياة طيبة سليمة من الضلال والشقاء.

والله تبارك وتعالى هو منتهى الغايات والآمال

وتحقيقاً لهدف البحث وغايته فقد قسمت البحث إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وذلك كما يأتي:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وغايته وخطته

المبحث الأول: السياق تعريفه ومكانته وأنواعه

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني: مكانة السياق في ضوء القرآن الكريم

المطلب الثالث: أنواع السياق في ضوء القرآن الكريم

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية لتحكيم قاعدة الترجيح بالسياق في سورة الأنعام

المطلب الأول: وقفات مع سورة الأنعام

المطلب الثاني: نماذج تطبيقية على السياق الدلالي من سورة الأنعام

النموذج الأول: السكن من السكنى أم من السكون ؟

النموذج الثاني: أشهادة الله عز وجل لرسوله ﷺ بالرسالة شهادة أم قسم؟

النموذج الثالث: المقصود بالساعة القيامة أم الموت؟ حمل الأوزار على الظهور حقيقة أم مجاز؟

النموذج الرابع: المقصود بالبينّة القرآن الكريم أم الحجج العقلية؟

النموذج الخامس: رجوع أنساب المرسلين بين أبي البشر نوح وبين أبي الأنبياء إبراهيم عليهما الصلاة والسلام

النموذج السادس: المستقر والمستودع بين الأصلاب والأرحام، وبين ظاهر الأرض وباطنها

النموذج السابع: خلود الكافرين في النار بين البقاء والفناء

النموذج الثامن: عاقبة الدار بين الدنيا والآخرة

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية على السياق المقامي من سورة الأنعام

النموذج الأول: المراد من الأجلين

النموذج الثاني: المراد من ألوهية الله تعالى في السموات والأرض

النموذج الثالث: تفريط الكافرين في الدنيا أم في الآخرة؟

النموذج الرابع: الكتاب اللوح المحفوظ أم القرآن الكريم؟

- النمودج الخامس: قصة الخليل ﷺ مع الكواكب على سبيل النظر أم المناظرة؟
- النمودج السادس: الموكلون بالرسالة الخاتمة بين المؤمنين والمرسلين والملائكة
- النمودج السابع: تعذيب الكذابين والمستهزئين بين عذاب الموت والعذاب الأخروي؟
- النمودج الثامن: إرسال الرسل بين الإنس والجن
- النمودج التاسع: حق المزروعات يوم الحصاد بين الصدقة والزكاة
- النمودج العاشر: المجعولون خلائف الأرض بين الخلق وبين الأمة المسلمة
- وضمنت الخاتمة أهم نتائج البحث، وتوصياته، ثم أتبعها بقائمة المصادر والمراجع.

* * *

المبحث الأول السياق تعريفه ومكانته وأنواعه

وفيه مطالب:

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحاً

أولاً: السياق لغة

أصل السياق، سَوَّاق فقلبت الواو ياءً لكسرة السين، قال ابن فارس: " (سوق) السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيْءِ، يقال ساقه يسوقه سَوَّاقاً. والسَّيْقَةُ: ما استيق من الدواب، ويقال سَقْتُ إلى امرأتي صَدَاقَهَا، وَأَسَقْتُهُ. والسُّوقُ مشتقة من هذا، لما يُسَاق إليها من كلِّ شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سَوَّاق، إنما سَمَّيت بذلك لأنَّ الماشي يُسَاق عليها"^(١).

وقال الراغب رحمه الله تعالى: "ساق: سوق الإبل خلبها وطردها، يقال: سقته فانساق، والسيقة ما يساق من الدواب، وسقت المهر إلى المرأة وذلك أن مهوَّره كانت الإبل، وقوله تعالى: {إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}^(٢) وقوله تعالى: {وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}^(٣) قيل عني التفاف الساقين عند خروج الروح، وقيل أراد التفاف البلية بالبية {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}^(٤) من قولهم كشفت الحرب عن ساقها، وقال بعضهم في قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}^(٥) إنه إشارة إلى شدة وهو أن يموت الولد في بطن الناقة فيدخل المذمر يده في رحمها فيأخذ بساقه فيخرجه ميتاً، قال فهذا

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م، باب مادة (سوق)، ج: ٣، ص: ١١٧.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الكوثر، الآية: ٢٩.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٥) سورة القلم، الآية: ٤٢.

هو الكشف عن الساق فجعل لكل أمر فظيع"^(١).

وفي المعجم الوسيط: "(ساق) المريض سوقا، وسياقا، وسياقة، ومساقا شرع في نزع الروح، ساق الحديث: سرده، وسلسله، وإليك يساق الحديث بوجه، والمهر إلى المرأة أرسله وحمله إليها... (السياق) المهر، وسياق الكلام تتابعه، وأسلوبه الذي يجري عليه، والنزع يقال هو في السياق الاحتضار"^(٢).

والحاصل من هذا النقل اللغوي لمادة (س و ق) هو أن سياق الكلام هو تتابعه وسرده واطراده.

ثانيا: السياق اصطلاحا

للسياق عدة معان مختلفة، أقعدها النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، بأوسع ما تحمله هذه العبارة من معنى،ة ويؤخذ من هذا التعريف أن السياق يتكون من جانبين اثنين مختلفين ومتكاملين هما:

الجانب الأول: النظم اللفظي لا المكون من السابق واللاحق فحسب، بل والقطعة كلها والكتاب كله، وهو لا يخرج عن كونه تركيباً أو نظاماً لغوياً.

الجانب الثاني: كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، وهو خارج عن التركيب اللغوي متجاوز لحدوده، ولكن يبقى رغم كونه ينتظم عناصر غير لغوية لا يقل أهمية عن النظم اللفظي في تحديده معاني الحدث اللغوي، وهذا النظم هو ما سماه المفسرون السياق المقامي، والمقام يتألف من حيثيات عديدة مثل الخطاب، والمخاطب،

(١) الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، مادة (سوق) بتصرف، ج: ١، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) الجمع اللغوي، المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمعجمات إحياء التراث، مكتب الشروق الدولية، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م، مادة (ساق)، ج: ١، ص ٤٦٥.

والمخاطب، والزمان، والمكان^(١).

وقد رسخ الإمام الشاطبي مفهوم السياق بهذا المعنى الشمولي يقول رحمه الله تعالى: "أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال، والأوقات، والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على حمل بعضها متعلق ببعض، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا يحيص للمفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذا ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاختصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلا في موطن واحد وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان"^(٢).

المطلب الثاني: مكانة السياق في ضوء القرآن الكريم

لم يزل تفسير النصوص الشغل الشاغل للعلماء، كل في مجال اختصاصه؛ لأن فهم المراد من النص هو الهدف الأول، لما له من الآثار والثمار، فلا غرو أن تتجه الأنظار إلى تفسير النصوص منذ وجدت، وساق تفسير النصوص - خاصة الدينية منها تباين في الوسائل والغايات، فطائفة تحرت على الكشف عن المراد من النص القرآني في ضوء ما أتيج لها من معالم وقرائن معينة على فهمه، وطوائف أخرى شغلتها أغراضها؛ فغدت على النص تفسره كيفما ترى، أو كما يحلو لها، بعيداً عن الضوابط والقرائن، جاهلة بها، أو متجاهلة لها؛ فكانت الجناية على النص القرآني^(٣).

(١) الشبكة العربية الأدبية بتصرف.

<http://ar8i.net/vb/showthread.php?t=3205>

(٢) الموافقات في أصول الشريعة، ج: ٣، ص ٤١٣.

(٣) الشبكة العنكبوتية على هذا الرابط بتصرف.

<http://www.alukah.net/Sharia/1045/431/#ixzz2luorCdbq>

ولما كان البحث التفسيري هو أهم البحوث الدينية، وذلك لصيانة ساحة التنزيل المجيد من التشغيب، حرص المفسرون على الحيلولة دون العبث بنصوص القرآن الكريم؛ فعمدوا بعد استقرارٍ وجمعٍ إلى وضع مجموعة من القواعد والمعامل التي تعين على التفسير السليم للنصوص، ولتكون بمثابة الميزان الذي يعرف به التفسير المقبول من غيره. كان السياق من أبرز هذه القواعد والقرائن، وقف المفسرون على دوره المتميز، فأنزلوه منزلة اللائقة به في الجملة، فلمفسري القرآن فضل السبق في الكشف عن دور السياق تفصيلاً وتأسيساً وتطبيقاً، منذ وقت مبكر، مما يظن أنه من نتاج الدراسات اللسانية الحديثة، ومن مبتكرات مدارس تحليل الخطاب.

يقول براون ويول: "إن الفكرة القائلة بإمكان تحليل سلسلة لغوية (جملة مثلاً) تحليلاً كاملاً بدون مراعاة السياق قد أصبحت في السنين الأخيرة محل شك" إذا كان بروز هذا الاهتمام متأخراً عند غير المسلمين - كما يفهم من العبارة السابقة - فإن عناية علماء الإسلام بالسياق كانت مصاحبة لنزول القرآن الكريم، وكان له استحضار مؤثر في فهم النص القرآني^(١).

ولما كان للسياق حضور أهما حضور في مجال تفسير القرآن الكريم، ومن الأمثلة التطبيقية التي ترشح السياق للمكانة المتقدمة في الحقل التفسيري ما يأتي:

أولاً: نماذج في المجال العقدي

يسهم دور السياق في إحداث الانسجام بين المسلم ومعتقداته، ومن الأمثلة على ذلك، ما أصله الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ

(١) الشبكة العنكبوتية على هذا الرابط بتصرف.

<http://www.alukah.net/Sharia/1045/431/#ixzz2luorCdbq>

وإن يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقْدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ^(١) "واختلف في معنى قوله تعالى: {ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ}^(٢) فقال بعضهم: عني بالطالب: الآلهة، والمطلوب: الذباب، ذكر من قال ذلك: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال ابن عباس، في قوله: {ضَعْفَ الطَّالِبِ} قال: ألتهم: {وَالْمَطْلُوبِ}: الذباب.

وكان بعضهم يقول: معنى ذلك: {ضَعْفَ الطَّالِبِ} من بني آدم إلى الصنم حاجته: {وَالْمَطْلُوبِ} إليه الصنم أن يعطي سائله من بني آدم ما سأل، يقول: ضعف عن ذلك وعجز.

والصواب من القول في ذلك عندنا ما ذكرته عن ابن عباس من أن معناه: وعجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه؛ والمطلوب: الذباب، وإنما قلت هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فأن يكون ذلك خيرا عما هو به متصل أشبه من أن يكون خيرا، عما هو عنه منقطع^(٣).

فابن جرير رحمه الله رجح أن يكون الطالب هو الآلهة والمطلوب الذباب، من دلالة السياق وتتابع نظم الآية برد آخرها على أولها.

وكم كانت الدهشة تتابني عندما كنت أسمع المتكلم أثناء اللقاءات العامة ومجتمعات البسطاء من المسلمين، وهو يتوسع في تقريره لهم الصديق يوسف عليه الصلاة والسلام مع امرأة العزيز، ساردا لتلك الروايات المتكاذبة الطاعنة في عصمة رسول كريم قطع الشرع الحكيم بها، وفي النص الكريم مندوحة عن هذه الأقاويل

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: ١٦، ص ٦٣٥ - ٦٣٦.

المتهاكة، والتي كشف زيفها خبراء السياق الجليل من مثل أبي حيان الأندلسي، قال رحمه الله في قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} ^(١) "طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق، والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بما البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب لولا متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد، بل نقول: إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما تقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم،... وأما أقوال القدامى فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، والذي روي عن القدامى لا يساعد عليه كلام العرب" ^(٢).

ثانياً: نماذج في المجال الفقهي

وأورد هنا ما ذكره بعض المفسرين في المراد بالإحصان - وهو من المشترك اللفظي - في قوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُخْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه، د زكريا عبد المجيد المنوفي، د أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ج: ٥، ص ٢٩٥.

فَانْكَحُوهُنَّ يَإِذْنَ اٰهْلِهِنَّ وَاَتَوْهُنَّ اُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُخَصَّنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَخَذَاتٍ اَخْدَانٍ اِذَا اُحْصِنَ اِنْ اَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُخَصَّنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَاَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ^(١) فقد رجح كل من ابن كثير والشنقيطي أن المراد بالإحصان في {فَإِذَا أُحْصِنَ} ^(١) فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُخَصَّنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ^(٢) التزويج لدلالة السياق.

قال ابن كثير: "والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان ها هنا التزوج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول الله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُخَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}^(٣) والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله تعالى: {فَإِذَا أُحْصِنَ}^(٤) أي: تزوجن كما فسره ابن عباس ومن تبعه"^(٥).

وقال الشنقيطي: "قوله تعالى: {فَإِذَا أُحْصِنَ}^(٦) أي: فإذا تزوجن، وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله تعالى: {فَإِذَا أُحْصِنَ}^(٧) الإسلام خلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال: {وَمَنْ لَّمْ

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٥) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو القرشي. تفسير القرآن العظيم، أول طبعة مقابلة على النسخة الأزهرية، وعلى نسخة كاملة بدار الكتب المصرية، تحقيق مصطفى السيد أحمد، محمد السيد رشاد، محمد فضل العجاوي، علي أحمد عبد الباقي، حسن عباس قطب، مؤسسة قرطبة، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ج: ٣، ص: ٤٣٤.

(٦) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٧) سورة النساء، الآية: ٢٥.

يَسْتَطِيعُ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ
فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ {^(١)»^(٢) .

ثالثاً: نماذج في مجال السنن الإلهية

أ) مجال السلم

تجلت سنة الله تعالى التي لا تتخلف بالنصر والتمكين لكل من حسن إسلامه من الكافرين والمنافقين، يتمثل ذلك في الوعد الإلهي الكريم في قوله سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ^(٣)، هذا هو المرجح بدلالة السياق كما جزم به شيخ الإسلام أبو السعود رحمه الله تعالى بقوله: "استئناف مقرر لما في قوله تعالى: {وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} ^(٤)، من الوعد الكريم ومُعرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدنيوية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التي نيط بها الاهتداء، والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أي طائفة كان، وفي أي وقت كان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب، ضرورة عموم الوعد الكريم لكل كافة فالخطاب في {مِنْكُمْ} لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصة، هذا ومن جعل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأمة

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٢) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الحكي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، تمويل مؤسسة سلمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ١، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٤) سورة النور، الآية: ٥٤.

عُموماً على أن من تبعيضية، أو له عليه السَّلام ولمن معه من المؤمنين خصوصاً على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سباق النَّظم الكريم وسياقه بمنازل، وأبعد عما يليق بشأنه عليه السَّلام بمراحل^(١).

(ب) مجال الحرب

تحققت سنة الله تعالى التي لا تبدل بالتأييد للمؤمنين المخلصين، ويتمثل ذلك في الوعد الإلهي الكريم في قوله سبحانه: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} {٧} لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُنْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} {٨} إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ} {٩} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {١٠} إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} {١١} إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأْلِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} {١٢} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {١٣} ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} {١٤} {١}

هذا الأمن الحاصل بسبب إغشاء النعاس الكائن من أسباب النصر يوم بدر، قد حصل قبل بدء القتال، وهذا معلوم من نسق الآيات الكريمة، فقدم النعاس على الأمنة

(١) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر. ج: ٤، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧ - ١٤.

جريا على الترتيب المنطقي، في حين أن نظيرة الآية الكريمة الواردة في سورة آل عمران والتي تتحدث عن غزوة أحد، قد قدم فيها ذكر الأمن على النعاس، وذلك لأن الشاغل للجيش يوم أحد هو الغم بسببين: الأول: إشاعة مقتل الرسول ﷺ، الثاني: الهزيمة، هذا هو المقتضي لتغاير النظم الجليل عن سياق غزوة بدر كما في سورة الأنفال قال ابن عاشور: "(وَنُعَاسًا) بدل على (أَمْنَةً) بدل مطابق، وكان مقتضى الظاهر أن يقدم النعاس ويؤخر أمانة؛ لأن أمانة بمنزلة الصفة أو المفعول لأجله فحقه التقديم على المفعول كما جاء في آية الأنفال {إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ} ^(١)، ولكنه قدّم الأمانة هنا تشريفاً لشأنها لأنها جعلت كالمنزل من الله لنصرهم، فهو كالسكينة، فناسب أن يجعل هو مفعول (أنزل)، ويجعل النعاس بدلاً منه" ^(٢).

المطلب الثالث: أنواع السياق في ضوء القرآن الكريم

يتسع السياق القرآني ليتكون من أربعة دوائر من السياق بعضها داخل في بعض ومبني عليه. وهذا من مظاهر تعدد وتحدد إعجاز القرآن، وهذه الدوائر الأربعة هي:

الدائرة الأولى: سياق الآية.

الدائرة الثانية: سياق الآيات بالسياق واللاحق.

الدائرة الثالثة: سياق السورة كاملة.

الدائرة الرابعة: سياق القرآن كاملاً.

وهذه الدوائر الأربع متكاملة تكاملاً، ينتج عنه خط منهجي ذو معان متعددة وأغراض متنوعة، ويمكن أن يقسم السياق القرآني بدوائره الأربع إلى النوعين الآتيين:

النوع الأول: السياق الدلالي (اللغوي)، هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام

(١) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(٢) التحرير والتنوير، ج: ٤، ص ١٣٣.

الآية الواحدة، أو الآيات العديدة بالسباق واللاحق، أو السورة كاملة، أو القرآن الكريم كاملاً، مما يكسبها معنى خاصاً محدداً. فالمعنى في السياق الدلالي مغاير للمعنى الذي يقدمه المعجم، لأن المعنى المعجمي متعدد ومحمّل، في حين أن المعنى الذي يقدمه السياق الدلالي (اللغوي) هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو التعميم.

ومن تطبيقات السياق الدلالي في الأوجه التفسيرية ما أصله شيخ الإسلام أبو السعود في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ^(١)، " {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} ^(٢)، عطفت على آمنوا داخل معه في حيز الصلّة، وبه يتم تفسير الطاعة التي أمر بها، ورُتب عليها ما نُظم في سلك الوعد الكريم، وتوسيط الطرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان، وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللايدان بكونه أوّل ما يطلب منهم، وأهم ما يجب عليهم، وأمّا تأخيرُهُ عنهما في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} ^(٣)، فلأن حرف الجر {مِنْ} هناك بيانيّة، والضّمير للذين معه

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

عليه السَّلام من خُلصَّ المؤمنين، ولا ربَّ في أنَّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصَّالحة، مثابرون عليهما فلا بُدَّ من ورود بيانهم بعد ذكر نُعوتهم الجليلة بكما لها^(١).

الثاني: السياق المقامي، يدل هذا السياق على العلاقات الزمانية، والمكانية التي نزل فيها القرآن الكريم، وقد أسس مفسرو القرآن الكريم، لهذا النوع من السياق، وقعدوا أصلهم الشهير (لكلِّ مقام مقال)، فمراعاة المقام تجعل المتلقي على قدر كاف من الوعي لإدراك مرامي الكلام الذي قصده صاحبه^(٢)

ومن تطبيقات السياق المقامي في الأوجه التفسيرية ما أصله المفسرون في باب أسباب النزول الذي يقتضي تعدد الزمان والمكان للذين كانا ظرفاً لتنزل القرآن الكريم، وشواهد السياق المقامي كثيرة منها ما ذكره الشنقيطي رحمه الله قال: "كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: {قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّعَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

(١) إرشاد العقل السليم، ج: ٤، ص ١٣٩.

(٢) ومن مرتكرات السياق المقامي في القرآن الكريم اعتباره للسياق المقاصدي (الناظم مقاصد القرآن الكبرى)، ومقاصد القرآن معتبرة في تفسير كلام الله تعالى كله، بل يجب الاعتماد عليها في كل سورة وآية منه حسب ما يقتضي المقام فيها، وقد أجمل ابن عاشور مقاصد القرآن كلها في ثمانية مقاصد: الأول: إصلاح الاعتقاد، الثاني: تهذيب الأخلاق، الثالث: بيان التشريع، الرابع: سياسة الأمة وصلاحتها وحفظ نظامها، الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، السادس: التعليم بما يناسب حاله عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول. التحرير والتنوير، فيما يحق أن يكون غرض المفسر بتصرف، ج: ١، ص ٣٩ - ٤٢. وقال الشاطبي رحمه الله "كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزء، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم" الموافقات، ج: ٣، ص ١٥٣.

تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ^(١)، وقوله تعالى:
 {قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
 وَازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ^(٢)"}^(٣).

* * *

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٣) أضواء البيان، ج: ٣، ص ٤٩٢ - ٤٩٣.

المبحث الثاني

نماذج تطبيقية

لتحكييم قاعدة الترجيح بالسياق في سورة الأنعام

وفيه مطالب:

المطلب الأول: وقفات مع سورة الأنعام

سورة الأنعام تمثل القرآن المكي أيما تمثيل، إنها تعرض العقيدة ناصعة في ميدان الممارسة والمحاجة، فهي أول سورة بسطت الحجة على عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، فأقامت الحجج على وحدانيته عز وجل وألوهيته، فهي من نوادر السور المكية الطويلة التي أسست بناء لتوحيد على هذا المستوى، وقد احتوت عددا من الرموز والإشارات للدلالة على أن العقيدة هو محورها الشامل، فقد تكرر لفظ الجلالة (الله) سبعا وثمانين ٨٧ مرة فيها، نصف مرات عدد آياتها، في حين أن عدد آياتها مائة وخمسا وستين ١٦٥ آية، وتعدد فعل الأمر {قُلْ} في ثنائياها؛ حيث ذكر فيها خمسا وثلاثين ٣٥ مرة، فكانت أكثر سورة في القرآن الكريم تردد فيها هذا الفعل {قُلْ}، أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم وأتمته من بعده أن يبلغوا ما فيها من عقائد وأحكام، ذكر اسم "الرب" فيها خمسا وأربعين ٤٥ مرة، ذكر مشتقات مادة النظر، والإبصار، والرؤية فيها خمسا وخمسين ٥٥ مرة.

فهذا الكم الهائل من الكلمات المكررة بأعداد تجاوزت العشرات ينبئ عن قصد حثيث إلى إثبات معاني عقدية، وترسيخ أصول إيمانية، وإعداد بيئة منهجية لا يكاد قارئ السورة أن ينهيها حتى تترسخ لديه مفاهيم جديدة ويتكون عنده معجم مصطلحات ويتضح له سبيل المحجة، وقد تعززت هذه الجوانب في السورة بالبعد التطبيقي من خلال القصص التي طفقت السورة تسرد بعضها، كما هو الشأن في محاجة إبراهيم لقومه، وتشير إلى بعضها الآخر إشارات عابرة، متبعة إياه بكوكبة من

المرسلين تمنيًا للاقتداء والاتساء. وتنويعها بعظمة منة الله تعالى بهم لهداية البشرية قبل بعثة خاتمهم صلى الله عليه وسلم.

وقد آثرت التطبيق على سورة الأنعام لاختصاصها في ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية الصافية، ويبرز ذلك من الوقفات الآتية مع السورة الكريمة:

الوقفة الأولى: اسمها سورة الأنعام، يقول ابن عاشور: "ليس لهذه السورة إلا هذا الاسم من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وورد عن عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود، وأنس ابن مالك، وجابر بن عبد الله، وأسماء بنت يزيد بن السكن - رضي الله عنهم - تسميتها في كلامهم سورة الأنعام، وكذلك ثبتت تسميتها في المصاحف، وكتب التفسير، والسنة، وسميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات"^(١).

والذي يبدو للباحث أن سبب تسمية السورة بهذا الاسم لم يكن لمجرد ورود كلمة الأنعام فيها فقط، وإنما لذلك لبعد آخر يكمن في كون الأنعام عند العرب كانت تمثل عصب الحياة كلها، فمنها أكلهم، وشربهم، ولباسهم، ومواصلاتهم، وثروتهم، وكأن كفار مكة كانوا يقولون: نعبد الله كما نشاء.. خاصة في شأن الأنعام التي تجمع مهمات حياتنا، لكن الله تعالى يخبرهم أن التوحيد يجب أن يكون في الاعتقاد، والتطبيق أيضاً... يجب أن نوحّد الله في كل التصرفات، وليس في المعتقدات فقط، وهذا توجيه ليس فقط لكفار مكة، وإنما توجيه لعامة الناس الذين يعتقدون بوحداية الله تعالى، ولكن تطبيقهم يناقض معتقداتهم.

الوقفة الثانية: سورة الأنعام مكية، على اختلاف في بعض آياتها، وعدد آياتها: عند الكوفيين مائة وخمسة وستون، وعند البصريين والشاميين ست وستون ومائة، وعند

(١) التحرير والتنوير، ج: ٧، ص ١٢١.

الحجازيين سبع وستون ومائة^(١)، وغرضها يدور في فلك مقاصد السور المكية، ومجالها ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية الصافية، فتطوف سورة الأنعام بالقلب البشري، وتخلق به في الآماد والآفاق، والأغوار والأعماق؛ ولكنها تمضي كلها على منهج القرآن، إنما لا تهدف إلى تصوير نظرية العقيدة، ولا إلى جدل يشغل الذهن والفكر؛ ولكن تهدف إلى تقرير حقيقة تعريف الناس برهم الحق؛ لتصل بهم من خلال هذا التعريف إلى العبودية الحقة لرهم الحق، فلا يعبدون الهوى، ولا الشهوات، ولا الأهواء والنفعيات، وإنما يعبدون الله. يعبدونه بضمائرهم، وقلوبهم، وأرواحهم، يعبدونه بسعيهم وحركتهم، يعبدونه بشعائيرهم، يعبدونه في واقعهم، فكله لله؛ لأنه السلطان الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء، هذا هو هدف السورة الذي يكاد يسري على سورة الأنعام من أولها إلى آخرها، فالنور مهما كان ضئيلاً فإنه يبذل الظلمات مهما كانت معتمة، قال الألوسي رحمه الله: "وقد يقال: إنه لما كان قطب هذه السورة دائراً على اثبات الصانع ودلائل التوحيد حتى قال أبو إسحاق الإسفراييني: إن في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد ناسبت تلك السورة من حيث إن فيها إبطال ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام وتوبيخ الكفرة على اعتقادهم الفاسد وافتراءهم الباطل"^(٢).

الوقف الثالث: سورة الأنعام هي ثاني سورة مكية في ترتيبها المصحفي بعد ما سبقها من سورة الفاتحة، والسور المدنية، وهي أول سورة في ترتيبها المصحفي ابتدأت بجملة الحمد {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

(١) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، قدم له وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه، الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ج: ٢، ص ١١٧.

(٢) الألوسي، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن شكري البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ٧، ص ٧٧.

ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ^(١) وقيل من مميزاتها أنها نزلت ليلاً دفعة واحدة، وأنه شيعها سبعون ألف ملك،^(٢). وقال البغوي: وروي مرفوعاً: (من قرأ سورة الأنعام يصلي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره)^(٣)، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، يقول الإمام القرطبي: "إن هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور"^(٤).

وقال فخر الدين الرازي: "قال الأصوليون: السبب في إنزالها دفعة واحدة أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المعطلين والملحدين فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله على قدر حاجاتهم وبحسب الحوادث، وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزل جملة"^(٥).

الوقفه الرابعة: تناولت سورة الأنعام القضايا الأساسية الكبرى لأصول العقيدة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، الروض لداني إلى المعجم الصغير للطبراني، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمير المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، رقم الحديث ٢٢٠، ج: ١، ص ١٤٥، والحديث إسناده حسن رجاله ثقات عدا السدي الكبير فهو صدوق حسن الحديث.

(٣) أخرجه الواحدي بسنده، الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الوسيط في تفسير الكتاب المجيد، تحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ج: ٢، ص ٢٥٠. البحر الزخار بمسند البزار، والحديث إسناده حسن رجاله ثقات عدا السدي الكبير وهو صدوق حسن الحديث.

(٤) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، شارك في تحقيق هذا الجزء محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ج: ٨، ص ٣١٢.

(٥) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ج: ١٢، ص ١٤٩.

الإسلامية، وهذه القضايا يمكن ذكرها فيما يأتي:

أولاً: قضية الألوهية.

ثانياً: قضية الوحي والرسالة.

ثالثاً: قضية البعث والجزاء.

والحديث في هذه السورة يدور بوضوح حول هذه الأصول العقدية وسلاحها في ترسيخها البرهان والدلائل القاطعة للإقناع، ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور القرآنية الكريمة وهما:

الأسلوب الأول: التقرير.

الأسلوب الثاني: التلقين، فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول وتلقينه للحجة القاطعة التي تثبت فؤاده، وجماعة المسلمين. ويصور هذا الأسلوب على شكل السؤال والجواب، يسألهم ثم يجيب ونلاحظ في سورة الأنعام كثرة استعمال فعل الأمر (قل) فورد اثنتين وأربعين (٤٢) مرة، وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة، والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل. ومن هنا كانت لسورة الأنعام مكانة رفيعة في ترسيخ الدعوة الإسلامية.

الوقفه الخامسة: أهمية قصة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سياق

ترسيخ الاعتقاد

والمناسبة الموضوعية لورود هذه الجزئية من قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سورة الأنعام متساوقة مع أسلوب الحجة، وإقامة البراهين والأدلة عند مواجهة المشركين، ثم تأتي آية فاصلة في السورة تدلنا على أن آيات الله تعالى في الآفاق ترى، ولكن القلوب إذا عميت لا تراها وتجحدّها، قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ^(١).

الوقفه السادسة: ختام السورة بربع كامل في الوصايا العشر، تلك الوصايا العشر التي هي بحق من أمهات الأخلاق والفضائل، ودعا إليها جميع الرسل السابقين، كما ذكرت السورة طرفاً من الجانب التشريعي، حيث تجلّى ذلك أعظم تجلّ في الوصايا العشر، كالنهي عن الشرك جملة وتفصيلاً والنهي عن عقوق الوالدين. وعن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده. والوفاء بالكيل، والميزان بالقسط، واجتناب المحرمات. ووجوب الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والوفاء بعهود الله تعالى. ولزوم الابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ووجوب التزام صراط الله المستقيم، وقبل ذلك ذكرت تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وما أهل لغير الله به، والميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، إلا لمن اضطر غير باغ ولا متجاوز حدود الاضطرار، وتنتهي السورة بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة، وهو أنه خليفة في الأرض، وأن الله تعالى جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليه أجياله، وأن الله تعالى فاوت في المواهب بين البشر لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي الابتلاء والاختبار.

المطلب الثاني: نماذج تطبيقية على السياق الدلالي من سورة الأنعام

وفيه ثمانية نماذج:

النموذج الأول: السكن من السكنى أم من السكون؟

النموذج الثاني: شهادة الله عز وجل لرسوله ﷺ بالرسالة شهادة أم قسم؟

النموذج الثالث: حمل الأوزار على الظهور حقيقة أم مجاز؟

النموذج الرابع: المقصود بالبيّنة القرآن الكريم أم الحجج العقلية؟

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

النموذج الخامس: رجع أنساب المرسلين بين أبي البشر نوح وبين أبي الأنبياء إبراهيم عليهما الصلاة والسلام

النموذج السادس: المستقر والمستودع بين الأصلاب والأرحام، وبين ظاهر الأرض وباطنها

النموذج السابع: خلود الكافرين في النار بين البقاء والفناء

النموذج الثامن: عاقبة الدار بين الدنيا والآخرة

النموذج الأول: السكن من السكنى أم من السكون ؟

اقتصر الإمام الطبري رحمه الله تعالى بين يدي تفسيره لقوله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ^(١) على القول بالدلالة الراجعة في معنى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} ^(٢) في الآية لكرمة: "قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا يؤمن هؤلاء العادلون بالله الأوثان، فيخلصوا له التوحيد، ويُفردوا له الطاعة، ويقروا بالألوهية، جهلاً {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} ^(٣)، يقول: وله ملك كل شيء، لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكن في الليل والنهار. فمعلوم بذلك أن معناه ما وصفنا" ^(٤)

وقد أحسن الإمام الطبري إحكام الدلالة للغوية في الآية فنزل الليل النهار منزلة المكان فعبر عن نسبة الأشياء الزمانية إليهما بالسكنى فيهما، وتعدي السكن بحرف الجر

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣.

(٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، دراسة حققه وعلّق حواشيه، محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ١١، ص ٢٨١.

(في) كما في قوله تعالى: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} ^(١).

فالقول الراجح أن السكن في الآية الكريمة مشتق من السكنى، وهو المستند لدلالة العموم المقدمة في النظم القرآني، أما ما قيل من أن السكن مشتق من السكون الذي هو مقابل الحركة فدلالة مرجوحة لسببين:

الأول: أن اختصاص ملك الله تعالى بالسكان في السموات والأرض يضيق دائر الملكوت الرباني.

الثاني: أن القول بالسكان مشتق من السكون مبني على أسلوب الحذف، قال الشوكاني: "وخصّ الساكن بالذكر، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة؛ وقيل المعنى: ما سكن فيهما أو تحرّك فاكتفى بأحد الضدّين عن الآخر" ^(٢) والقول بالحذف خلاف الأصل.

ولذلك قال ابن جزري رحمه الله: "ومعنى: {سَكَنَ} حل فهو من السكنى وقيل: هو من السكون وهو ضعيف لأن الأشياء منها ساكنة ومتحركة فلا يعم، والمقصود عموم ملكه تعالى لكل شيء" ^(٣).

النموذج الثاني: شهادة الله عز وجل لرسوله ﷺ بالرسالة شهادة أم قسم؟
اختلف المفسرون في مسألتين في قوله تعالى {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥. انظر إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٣٢٣.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم لتفسير، دراسة حققه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الرحمن عميرة، وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه، لجنة البحث والتحقيق العلمي بدار الوفاء بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ٢، ص ١٤٧. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير باسم تفسير المنار، دار المنا، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٣٦٦هـ - ١٩٩٧م، ج: ٧، ص ٣٢٩.

(٣) ابن جزري، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصححه وخرج آياته، محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٦م، ج: ١، ص ٢٦٤.

أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ^(١)، المسألة الأولى: أهو شهادة من الله عزوجل لرسوله ﷺ بالرسالة أم هو كناية عن قسم؟، فذهب ابن عاشور إلى أن الشهادة في الآية الكريمة هي كناية عن القسم، وليست شهادة حقيقة، لأن مضمون الشهادة متوقف على قوة اطمئنان النفس إليها، وشهادة الله على صدق الرسول ﷺ غير معلومة للمخاطبين المكذبين، فوجب حمل الشهادة هنا على القسم، ونظيره في قوله تعالى: {وَيَذُرْهَا عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} {٨}،^(٢) "أي أن تشهد الله على كذب الزوج، أي أن تحلف على ذلك بسم الله، فإن لفظ (أشهد الله) من صيغ القسم إلا أنه إن لم يكن معه معنى الإشهاد يكون مجازاً مرسلأً، وإن كان معه معنى الإشهاد كما هنا فهو كناية عن القسم مراد منه معنى إشهاد الله عليهم"^(٣).

والذي يظهر للباحث أن الشهادة في الآية الكريمة على بابها، لأن شهادة الله على صدق الرسول ﷺ كانت معلومة للمخاطبين المكذبين، بدليل قوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} {٤}، والجحود نفى ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفى^(٤)، فوجب حمل الشهادة في الآية الكريمة على معناها الحقيقي، والحمل على الحقيقة مقدم على المجاز، وهذا مذهب جمهور المفسرين.

المسألة الثانية: اختلف المفسرون في تقدير معنى قوله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٧ - ٨.

(٣) التحرير والتنوير، ج: ٧، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

(٥) المفردات، باب جحد، ص ١١٥.

شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(١)، ومن ثم اختلفوا في إعرابها في الصناعة النحوية على قولين:

الأول: أن يكون (اللَّهِ) مبتدأ و(شَهِيدٌ) خبره.

الثاني: أن يكون تمام الجواب عند قوله قُلِ اللَّهُ بِمعنى أن الله أكبر شهادة ثم يتبدى على تقدير هو شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.
والقول الأول هو الراجح لسببين:

أولاً: لصحة معناه بدون إضمار، كالقول الثاني الذي أضمر فيه أولاً وآخراً.

ثانياً: ورد الاعتماد عليه في التفسير بالمأثور، قال ابن عباس: قال الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهم: {أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟} فَإِنْ أَجَابُوكَ وَإِلَّا فَقُلْ لَهُمْ: {اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، فوجب حمل القرآن على الراجح لا على المرجوح^(٢)، وبناء على هذا الترجيح يقول ابن عاشور: "وبذلك يظهر موقع قوله: {اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي: أشهده عليكم، ولذلك فصلت جملة المصدر بـ {قُلْ}. وهذا جواب أمر به المأمور بالسؤال على معنى أن يسأل ثم يبادر هو بالجواب لكون المراد بالسؤال التقرير، وكون الجواب مما لا يسع المقرر إنكاره، ووقع قوله: {اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، جواباً على لسانهم لأنه مرتب على السؤال وهو المقصود منه، فالتقدير: قل شهادة الله أكبر شهادة، فالله شهيد بيني وبينكم، فحذف المرتب عليه لدلالة المرتب إيجازاً، كما هو مقتضى جزالة أسلوب الإلقاء والجدل"^(٣).

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) البحر المحيط، ج: ٤، ص ٩٤.

(٣) التحرير والتنوير، ج: ٧، ص ١٦٧.

النموذج الثالث: المقصود بالساعة القيامة أم الموت؟ وحمل الأوزار على الظهور حقيقة أم مجاز؟

اختلف المفسرون في مسألتين في قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} ^(١)، المسألة الأولى: المقصود بالساعة على قولين في قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} ^(٢)، الأول: المراد من الساعة: القيامة، وهو اختيار الألوسي.

الثاني: المراد من الساعة: الموت، وهو اختيار الزمخشري.

ومن ثم اختلفوا في (حمل الأوزار على الظهور أهو جار على أسلوب الحقيقة أم المجاز؟).

والذي يترجح للباحث أن القول الأول الذي مؤداه أن الساعة في الآية الكريمة هي القيامة، وذلك اعتماداً على الدلالة السياقية القريبة والبعيدة، وبيانه أن الدلالة السياقية القريبة تتمثل في أن المراد بلقاء الله تعالى في الآية الكريمة هو البعث والجزاء؛ كما رجحه ابن الجوزي ^(٣)، هذا أولاً وأما ثانياً: فلأنه مرشح بحمل الأوزار على الظهور حقيقة لا مجازاً، كما هو المقدم عند تعارض الحمل على الحقيقة مع الحمل على المجاز. وأما الدلالة السياقية البعيدة فتتمثل في أن الساعة إذا أطلقت في القرآن الكريم فالمراد منها القيامة، وقد وردت كلمة الساعة في القرآن الكريم خمساً وثلاثين مرة

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٣) ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي القرشي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر، ج: ٣، ص ٢٤.

جميعها في القيامة لا في الموت على حد قوله تعالى: {التَّارُّ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} ^(١).

المسألة الثانية: اختلف المفسرون في حمل الأوزار على الظهور في قوله تعالى: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} ^(٢)، على قولين: الأول: أن يكون (حمل الأوزار على الظهور) جاريا على أسلوب الحقيقة.

الثاني: أن يكون (حمل الأوزار على الظهور) جاريا على أسلوب المجاز. والذي يترجح للباحث هو أن (حمل الأوزار على الظهور) جار على أسلوب الحقيقة، إذ تفرعت هذه الصورة البيانية عن وقوع الطامة الكبرى، وهي القيامة، قال الآلوسي رحمه الله: "ولا مانع من الحمل على الحقيقة، وإجراء الكلام على ظاهره، وقد قال كثير من أهل السنة: بتجسيم الأعمال في تلك الدار، وهو الذي يقتضيه ظاهر الوزن" ^(٣).

النموذج الرابع: المقصود بالبيّنة القرآن الكريم أم الحجج العقلية؟

اختلف المفسرون في المراد من البيّنة في قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} ^(٤)، على ثلاثة أقوال:

الأول: القرآن الكريم.

الثاني: الحجج العقلية.

الثالث: النبوة.

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج: ٧، ص ١٣٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

والذي يظهر للباحث أن البينة وإن كانت في الأصل وصف مؤنث لكلمة (بَيِّن)، فهي صفة جرت على موصوف محذوف للعلم به في الكلام، أي: إني أستند على القرآن الكريم بينة وأي بينة في الرسوخ واليقين، قال شيخ الإسلام أبو السعود رحمه الله: "والبينة الحجة الواضحة التي تفصل بين الحق والباطل، والمراد بها القرآن والوحي، وقيل: هي الحجج العقلية أو ما يعتمدها، ولا يساعده المقام، والتنوين للتفخيم، وقوله تعالى: {مَنْ رَبِّي} متعلق بمحذوف هو صفة (لبينة) مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ورفع المنزلة ما لا يخفى" (١).

وهذا المحمل أعني تفسير البينة بالقرآن الكريم هو المنسجم مع الجملة التي بعدها في قوله تعالى: {وَكَذَّبْتُمْ بِهِ} "والضميرُ المجرورُ للبينة، والتذكير باعتبار المعنى المراد، والمعنى إني على بينة عظيمة كائنة من ربي وكذبتُم بها، وبما فيها من الأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب" (٢).

وكما وصف القرآن الكريم بوصف البينة، فقد وصف الرسول بوصف البينة في سورة البينة، قال أبو السعود عند تفسير لقوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} {١} {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً} {٢} {٣}.

"البينة صفة بمعنى اسم الفاعل أي: المبين للحق، أو هي الحجة المثبتة للمدعي، ويراد بها المعجز، وعلى الوجهين فقوله تعالى: {رَسُولٌ} بدل منها، بدل كل من كل، أو خبر لمقدر أي: هي رسول، وتنوينه للتفخيم، والمراد به نبينا صلى الله عليه وسلم،

(١) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٢٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٢٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١ - ٢.

وقوله سبحانه: {مَنْ اللَّهُ} في موضع الصفة له مفيد للفحامة الإضافية فهو مؤكد لما أفاده التنوين من الفحامة الذاتية^(١).

النموذج الخامس: رجع أنساب المرسلين بين أبي البشر نوح وبين أبي الأنبياء إبراهيم عليهما الصلاة والسلام

اختلف المفسرون في رجع الضمير في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} {٨٤} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ} {٨٥} وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} {٨٦} {^(٢) على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الضمير يرجع إلى نوح عليه الصلاة والسلام؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. وهو اختيار ابن جرير الطبري.

الثاني: أن الضمير يرجع إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ قاله عطاء.

الثالث: أن الضمير يرجع إلى نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ قال الزجاج: كلا القولين جائز، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى.

واحتج ابن جرير للقول الأول بأن الله تعالى، ذكر في سياق الآيات لوطاً، وليس من ذرية إبراهيم.

والذي يظهر للباحث أن الضمير يرجع للخليل عليه الصلاة والسلام، وذلك لثلاثة أسباب:

(١) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٢٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٤ - ٨٦.

الأول: لأن مساق النظم الكريم لبيان شؤون الخليل إبراهيم العظيمة من إتياء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وإبقاء هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، كل ذلك لإلزام مَنْ ينتمي إلى ملته عليه السلام من المشركين واليهود.

الثاني: أن هذا التأويل مؤيد بالنقل المأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكره أبو لسعود: "أن هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان منهم من لم يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب، لأن لوطاً ابن أخى إبراهيم، والعرب تجعل العم أباً، كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (١) مع أن إسماعيل عم يعقوب" (٢).

الثالث: لا مانع من إجراء الآية الكريمة على أسلوب التغليب الشائع استعماله في النظم الكريم.

النموذج السادس: المستقر والمستودع بين الأصلاب والأرحام، وبين ظاهر الأرض وباطنها

اختلف المفسرون في المراد بالاستقرار والاستيداع في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} (٣)، مع اتفاقهم على أنهما متقابلان، فالاستقرار طلب القر، وهو مؤذن بوضع دائم أو طويل، والاستيداع: طلب الترك، وأصله مشتق من الودع، وهو الترك على أن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

(٢) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٤٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

يُسترجع المستودعُ، فلاستيداع مؤذن بوضع موقت^(١).

وأصح أقوال المفسرين في المستقر والمستودع:

الأول: المستقر الكون فوق الأرض، والمستودع الكون في القبر، وهو مروي عن ابن مسعود، وعلى هذا الوجه يكون الكلام تنبيهاً لهم بأن حياة الناس في الدنيا يعقبها الوضع في القبور، وأن ذلك الوضع استيداع مؤقت إلى البعث الذي هو الحياة الأولى رداً على الذين أنكروا البعث.

الثاني: المستقر في الرحم، والمستودع في صلب الرجل، وهو مروي عن ابن عباس، وابن مسعود، قال الإمام الرازي: "وتما يدل على قوة هذا القول أن النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زمناً طويلاً والجنين يبقى في رحم الأم زمناً طويلاً"^(٢).

والذي يظهر للباحث حمل المستقر والمستودع على القولين معا أعني: الأصلاب والأرحام، وظاهر الأرض وباطنها، وذلك لأن مدار سياق الآيات الكريمة بسباقها ولحاقها على إقامة البراهين الأنفسية والآفاقية لإثبات الربوبية وأهم لوازمها وهو عقيدة البعث والجزاء، ولذلك قال الطبري: "إن الله لم يخص معنى دون غيره، ولا شك أن من بني آدم مستقراً في الرحم ومستودعاً في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها، ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر مستودع على ظهر الأرض، فكل مستقر أو مستودع بمعنى من هذه المعاني داخل في عموم قوله: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}^(٣).

وقد أبدع القاضي ابن عطية رحمه الله أيما إبداع في الاستدلال على أرجحية حمل المستقر والمستودع في الآية الكريمة على العموم: "الذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو

(١) التحرير والتنوير، ج: ٧، ص ٣٩٦.

(٢) مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص ١٠٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

مستودع في ظهر أبيه، وليس بمستقر فيه، لأنه ينتقل لا محالة، ثم ينتقل إلى الرحم، ثم ينتقل إلى الدنيا، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى الحشر، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار، وهو في كل رتبة بين هذين الطرفين مستقر بالإضافة إلى التي قبلها، ومستودع بالإضافة إلى التي بعدها^(١).

النموذج السابع: خلود الكافرين في النار بين البقاء والفناء

تقرر في الكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ أن المشركين الذين ماتوا وهم كفار لا يُغفر لهم البتة، وأنهم مخلّدون في النار بدون استثناء فريق ولا زمان، ولهذا صار معنى الاستثناء في الآية موضع إشكال عند جميع المفسرين قال تعالى: {وَيَوْمَ يُعْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} ^(٢).

وأبرز تأويلات المفسرين لهذا الاستثناء في الآية الكريمة سبعة أقوال:

الأول: أن الاستثناء في حق الموحدّين الذين يخرجون بالشفاعة، وهذا غير مستقيم لأن سياق الآية في خطاب الكافرين من الجن والإنس.

الثاني: أنه استثناء مفرغ من معناه، تقول: والله لأزورئك إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك على زيارته، ذكره الفراء، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس: {إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} قال: فقد شاء أن يخلّدوا فيها.

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق، الرحالة الفاروق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، محمد الشافعي الصادق الحناني، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط ٢، ١٤٢٨هـ —، ٢٠٠٧م، ج: ٣، ص ٤٢٧،

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

الثالث: أن المعنى: خالدين فيها أبداً، غير أن الله تعالى يأمر النار فتأكلهم وتفتنيهم، ثم يحدد خلقهم، فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال، وهذا غير منسجم مع سياق لقرآن كله القاضي بأن الكفار لا يذوقون الموت في الآخرة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ} ^(١).

الرابع: أن {إِلَّا} بمعنى (سوى) تقول: لو كان معنا رجل إلا زيد، أي: سوى زيد؛ فالمعنى: خالدين فيها سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة، وهذا اختيار الفراء، ويعترض عليه بأن التناوب بين حروف المعاني خلاف الأصل.

الخامس: أنهم إذا حُشروا وبُعثوا، فهم في شروط القيامة؛ فالاستثناء واقع في الخلود بمقدار موقفهم في الحساب، فالمعنى: خالدين فيها إلا مقدار موقفهم للمحاسبة، ويعترض عليه بأن الأصل في جريان الخلود يبدأ من دخول الكفار في النار.

السادس: أن الاستثناء وقع على أن لهم فيها عذابا مخصوصا مثل الزفير والشهيق المذكور في آية سورة هود {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} {١٠٦} {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} {١٠٧} ^(٢)، إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر؛ وهذا بعيد لأن سياق آية سورة الأنعام ليس فيه تخصيص للون من العذب كما في سورة هود.

السابع: أن {إِلَّا} بمعنى (كما) ومنه قوله: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٦.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٦ - ١٠٧.

النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ^(١)، ويعترض عليه بأن التناوب بين حروف المعاني خلاف الأصل.

ومعظم هذه الوجوه فيه اعتساف، قال ابن عاشور: "وقد أحصيتُ لهم عشرة تأويلات، بعضها لا يتم، وبعضها بعيد إذا جعل قوله: {إلا ما شاء الله} من تمام ما يقال للمشركين وأوليائهم في الحشر"^(٢).

والذي يراه الباحث متسقاً مع سياق الآية والسورة والقرآن أجمع أن الاستثناء في الآية الكريمة مفرغ من معناه وهو الاستثناء، فيحمل على التبرك بمشيئة الله تعالى فهو على وجه الأدب مع الله وإسناد الأمور إليه، وعليه يتم رجوع هذا الاستثناء إلى الأدلة القاطعة أن خلود المشركين غير مخصوص بزمن ولا بحال، وقد برع ابن عاشور في إحكام معنى الاستثناء بقوله: "أنه لا يقصد به إخراج أوقات ولا حالة، وإنما هو كناية، يقصد منه أن هذا الخلود قدره الله تعالى، مختاراً لا مكره له عليه، إظهاراً لتمام القدرة ومحض الإرادة، كأنه يقول: لو شئت لأبطلت ذلك وقد يعضد هذا بأن الله ذكر نظيره في نعيم أهل الجنة في قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ نَادِرًا لَّهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} {١٠٦} {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} {١٠٧} وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَيُنَادُونَ نَادِرًا لَّهُمْ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ} {١٠٨}"^(٣) فانظر كيف عقب قوله:

(١) سورة النساء، الآية: ٢٢.

(٢) الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه، الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وشارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، ج: ٣، ص ٣٠٣.

(٣) التحرير والتنوير، ج: ٨، ص ٧١.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٦ - ١٠٨.

{إلا ما شاء ربك} في عقاب أهل الشقاوة بقوله: {إن ربك فعّال لما يريد} وكيف عقّب قوله: {إلا ما شاء ربك} في نعيم أهل السعادة بقوله: {عطاء غير مجدوذ} فأبطل ظاهر الاستثناء بقوله: {عطاء غير مجدوذ} فهذا معنى الكناية بالاستثناء، ثمّ المصير بعد ذلك إلى الأدلة الدالة على أنّ خلود المشركين غير مخصوص بزمن ولا مجال^(١).

النموذج الثامن: عاقبة الدار بين الدنيا والآخرة

خصّص الاستعمال القرآني لفظ العاقبة بآخرة الأمر الحسنّة، فإذا أطلق لفظ العاقبة مجرداً من القرينة، فلا ينصرف في القرآن الكريم إلا للعاقبة الحسنة، قال الراغب: "العاقبة والعقبى يختصان بالثواب نحو: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}^(٢)." وبالإضافة قد يستعمل في العقوبة نحو: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}^(٣).

وإذا كانت عاقبة كل شيء هي ما ينجلي عنه الشيء ويظهر في آخره من أثر ونتيجة، فإن المفسرين اختلفوا في المراد من عاقبة الدار في قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}^(٤).

على قولين:

الأول: تعلمون ثواب الآخرة بالإيمان، وعقابها بالكفر ترغيباً منه في ثوابه وتحذيراً

(١) التحرير والتنوير، ج: ٨، ص ٧٢.

(٢) سورة لأعراف، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الروم، الآية: ١٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٥.

من عقابه.

الثاني: تعلمون نصر الله في الدنيا لأوليائه، وخذلانه لأعدائه.

والذي يظهر للباحث أن معنى عاقبة الدر في الآية الكريمة هو الدار الآخرة بما فيها من صنوف الكرامة وذلك لسببين:

الأول: أن سياق الآية بسباقها ولحاقها يتكلم في مشهد من مشاهد الآخرة بدء من قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} ^(١) إلى قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} ^(٢).

الثاني: أن تركيب عاقبة الدار، وعقبى الدار في القرآن الكريم لم يستعمل إلا في سياق الدار الآخرة، وذلك في خمسة مواضع، وهو ما فطن له ابن جزري رحمه الله بقوله: "عاقبة الدار أي الآخرة، أو الدنيا، والأول أرجح لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} {٢٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} {٢٣} سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} {٢٤}"} ^(٣) ^(٤).

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٢ - ٢٤.

(٤) التسهيل علوم التنزيل، ج: ١، ص ٢٨٧.

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية على السياق المقامي من سورة الأنعام

وفيه عشر نماذج:

النموذج الأول: المراد من الأجلين

النموذج الثاني: المراد من أولوية الله تعالى في السموات والأرض

النموذج الثالث: تفريط الكافرين في الدنيا أم في الآخرة؟

النموذج الرابع: الكتاب اللوح المحفوظ أم القرآن الكريم؟

النموذج الخامس: قصة الخليل ﷺ مع الكواكب على سبيل النظر أم المناظرة؟

النموذج السادس: الموكلون بالرسالة الخاتمة بين المؤمنين والمرسلين والملائكة

النموذج السابع: تعذيب الكذابين والمستهزئين بين عذاب الموت والعذاب الأخروي ؟

النموذج الثامن: إرسال الرسل بين الإنس والجن

النموذج التاسع: حق المزروعات يوم الحصاد بين الصدقة والزكاة

النموذج العاشر: المجمعولون خلافت الأرض بين الخلق وبين الأمة المسلمة

النموذج الأول: المراد من الأجلين

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الأجلين في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ

طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} ^(١) على أربعة أقوال أشهرها

قولان:

الأول: الأجل الأول الموت، والأجل الثاني يوم القيامة، وجعله عنده لأنه استأثر

بعلمه.

الثاني: الأجل الأول النوم، والأجل الثاني الموت.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢.

والذي يظهر للباحث أن القول الأول الذي مفاده: أن الأجل الأول الموت، والأجل الثاني يوم القيامة، هو الراجح، وذلك لثلاثة أسباب:

الأول: أنه المؤيد بدلالة المقام لخطابي للكافرين، العادلين بالله تعالى الأصنام، المنكرين لأصل البعث والنشور.

الثاني: أن المتسق مع السياق الكلي للسورة، والسياق القرآني العام في الاحتجاج على المنكرين للبعث بدليل ثبوت الموت.

الثالث: أن الأجل الثاني وهو الساعة قد استأثره الله تعالى بعلمه، فلا سبيل للوقوف عليه جملة وتفصيلاً، بخلاف الموت الذي يعلم بظهور بعض مبادئه، وقد تفرد شيخ الإسلام أبو السعود في تطبيقه لقاعدة السياق بنوعيه الدلالي والمقامي قال رحمه الله: "{ثُمَّ قَضَىٰ} أي كتب لموت كل واحد منكم {أَجَلًا} خاصاً به أي: حداً معيناً من الزمان يفنى عند حلوله لا محالة، {وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} أي: حدٌ معينٌ لبعثكم جميعاً، وتوحيته لتفخيم شأنه وتحويل أمره، ولذلك أُوثر تقديمه على الخير الذي هو {عِنْدَهُ} مع أن الشائع المستفيض هو التأخير، والمعنى: أيُّ أجلٍ مسمى مُثَبَّتٌ معينٌ في علمه لا يتغير ولا يقفُ على وقت حلوله أحدٌ لا مجملًا ولا مفصلاً، وأما أجلُ الموت فمعلومٌ إجمالاً وتقريباً بناءً على ظهور أماراته، أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان، وقيل: الأجلُ الأول ما بين الحياة والموت، والثاني ما بين الموت والبعث من البرزخ... والأول هو الأشهرُ الأليقُ بتفخيم الأجل الثاني المنوط باختصاصه بعلمه تعالى، والأنسبُ بتهويله المبني على مقارنته للطامة الكبرى، فإن كونَ بعضه معلوماً للخلق ومُضَيِّه من غير أن يقع فيه شيءٌ من الدواهي كما يستلزمه الحملُ على المعنى الثاني مُخِلٌّ بذلك قطعاً.. {ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} استبعادٌ واستنكارٌ لامترائهم في البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه، أي تَمْتَرُونَ في وقوعه وتحققه في نفسه مع مشاهدتكم في

أنفسكم من الشواهد ما يقطع مادة الامتراء بالكلية، فإن مَنْ قَدَر على إفاضة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشيء منها أصلاً كان أوضح اقتداراً على إفاضتها على مادة قد استعدت لها وقارتها مدة، ومن هاهنا تبين أن ما قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثاني هو الموت أو أن الأول أجل الباقيين أو أن الأول مقدار ما مضى من عُمر كل أحد والثاني مقدار ما بقي منه مما لا وجه له أصلاً، لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم في البعث الذي عبّر عن وقته بالأجل المسمى، فحيث أُريد به أحد ما ذكر من الأمور الثلاثة ففي أي شيء يمترون؟ ووصفهم بالامتراء الذي هو الشك، وتوجيه الاستبعاد إليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مُصِرّون على إنكاره كما يُبنى عنه قولهم: {قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} ^(١) ونظائره، للدلالة على أن جزمهم المذكور في أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار ^(٢).

النموذج الثاني: المراد من أولوية الله تعالى في السموات والأرض

اختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} ^(٣) على ثلاث أقوال:

الأول: وهو الله المُدَبِّر في السموات وفي الأرض، ونظيره قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} ^(٤) كما يقال: أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب.

الثاني: وهو الله المعبود في السموات، وفي الأرض، لأن في السموات الملائكة، وفي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ١٦٦ - ١٦٧ بتصرف.

(٣) سورة أنعام، الآية: ٣.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.

الأرض والإنس والجن.

الثالث: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: وهو الله يعلم سرهم وجهركم في السموات وفي الأرض، فالمعنى أنه في السموات والأرض بعلمه كقوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }^(١).

والذي يظهر للباحث أن القول الأول هو أرجح الأقوال الثلاثة وأفصحها، لأن اسم الجلالة الله جامع للصفات كلها من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك فقد جمعها مع إيجاز^(٢).

وهذا ما رجحه أبو السعود رحمه الله بقوله: "{ وَهُوَ اللَّهُ } جملة مَسْوَقة لبيان شمول أحكام إلهيته تعالى لجميع المخلوقات، وإحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية إلى الجزاء، إثر الإشارة إلى تحقق المعاد في تضاعيف بيان كيفية خلقهم وتقدير آجالهم، وقوله تعالى: { فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } باعتبار أنه اسمٌ اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال فلو حظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية الكلية، والتصرف الكامل حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة.. وهذا تبين أن ما قيل بصدد التصوير والتفسير أي: هو المعروف بذلك في السموات وفي الأرض، أو هو المعروف المشتهر بالصفات الكمالية، بالإلهية فيهما، أو نحو ذلك بمعزل من التحقيق، فإن المعتبر مع الاسم هو نفس الوصف الذي اشتهر به، إذ هو الذي يقتضيه المقام حسبما بين آنفاً لاشتهاره به"^(٣).

النموذج الثالث: تفریط الكافرين في الدنيا أم في الآخرة؟

اختلف المفسرون في رجوع الضمير في قوله تعالى: { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) انظر التسهيل لعلوم التنزيل، ج: ١، ص ٢٦٢.

(٣) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ١٦٦.

اللَّهُ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ
أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} ^(١)، على قولين:

الأول: أن تحسر الكفار على ما فرطوا فيها، والضمير فيها يعود للحياة الدنيا، لأن
المعنى يقتضي ذلك، وإن لم يجر لها ذكر.

الثاني: أن تحسر الكفار على ما فرطوا فيها، والضمير فيها يعود للساعة، أي: فرطنا
في شأنها والاستعداد لها.

والذي يترجح للباحث أن القول الثاني الذي مؤداه أن تحسر الكافرين يعود
للساعة، أي: فرطنا في شأنها والاستعداد لها، وهذا ترجيح مبني على أن الساعة في الآية
الكريمة هي القيامة، وذلك اعتمادا الدلالة السياقية القريبة والبعيدة، أما الدلالة السياقية
القريبة فتتمثل في أن القضية المركزية في مجال الاعتقاد تعالى في القرآن الكريم هي
عقيدة البعث والجزاء؛ كما رجحه شيخ الإسلام قال رحمه الله: "{عَلَى مَا فَرَّطْنَا
فِيهَا} أي: على تفریطنا في شأن الساعة، وتقصيرنا في مراعاة حقها والاستعداد لها
بالإيمان بها، واكتساب الأعمال الصالحة كما في قوله تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا
حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ} ^(٢) وقيل: الضمير
للهياة الدنيا وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة" ^(٣).

النموذج الرابع: الكتاب اللوح المحفوظ أم القرآن الكريم؟

اختلف المفسرون في المراد من الكتاب في قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ١٩٤.

يُحْشَرُونَ^(١)، على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ، روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب.

الثاني: أنه القرآن الكريم، روى عطاء عن ابن عباس: ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم. فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص، فيكون المعنى: ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيناه في الكتاب، إما نصاً، وإما دلالة، كقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}^(٢) أي: لكل شيء يحتاج إليه في أمر الدين.

والذي يظهر للباحث أن المراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ، وذلك لسببين:

الأول: اتساق ذلك مع سياق الآية الخليفة التي تتحدث عن الآيات الآفاقية، قال شيخ الإسلام: "وما دابة ولا طائر {إِلَّا أَمَّمْ} أي طوائف متخالفة، {أمثالكم} أي: كل أمة منها مثلكم في أن أحوالها محفوظة وأمورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد، ومنظمة في سلك التقديرات الإلهية والتدبيرات الربانية"^(٣).

الثاني: اتساق ذلك مع السياق الدلالي للآية الكريمة، ويتمثل ذلك بينائها الأسلوبى على الصيغة العامة المطلقة، وأما حمل الكتاب على القرآن الكريم فإنه ينحو بالآية الكريم إلى المجاز، وذلك بحمل العام المطلق على العام المخصوص، وهذا المنزع خلاف الأصل.

قال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: "القول في تأويل قوله: {مَا فَرَطْنَا فِي

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٣) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٠٣.

الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ{.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبن الله غافلاً عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون! وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغير، أو كبير، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناساً مجتسمة، وأصنافاً مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سُخِّرَتْ له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومُثَبَّت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب، ثم إنه تعالى ذكره مميتها ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. يقول: فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أحرى أن لا يضيع أعمالكم، ولا يُفَرِّط في حفظ أفعالكم التي تجتريحونها، أيها الناس، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إذ كان قد خصكم من نعمه، وبسط عليكم من فضله، ما لم يعم به غيركم في الدنيا، وكنتم يشكره أحق، وبمعرفة واجبه عليكم أولى، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميزون، والفهم^(١).

النموذج الخامس: قصة الخليل ﷺ مع الكواكب على سبيل النظر أم المناظرة؟
 أثير على قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} {٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} {٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا

(١) جامع البيان، ج: ١١، ص ٣٤٤.

أَفَلَا قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ {٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ {٧٨} إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٧٩} وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ {٨٠} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨١} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {٨٢} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {٨٣} {١}، إشكال غريب مداره على أن قصة الخليل عليه الصلاة والسلام مع الكواكب كانت على سبيل النظر والاعتقاد لا على سبيل المناظرة والمحاكاة.

ولا أدري كيف نسب بعض المفسرين هذه المجازفة العقدية للخليل عليه الصلاة والسلام، وهو أبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأبر المسلمين وصاحب ملة الإسلام، ورافع قواعد الكعبة بيت الإخلاص والتوحيد، قال تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّثْلَ مَا أَبْيَكُمُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} {١}.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤ - ٨٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٨.

وحمل قصة الخليل على أسلوب المناظرة هو المتجاوب مع السياق المقامي، ذلك أن مقام شيخ الخنفاء يثبت القول بالشرك المستلزم للتحير والتخبط هذا أولاً، وأما ثانياً فلتفاهه مع سياق الآيات بالسباق واللاحق، وأما ثالثاً فلمساوقته لشأن الخليل في القرآن كله، فكم مرة أثنى الله تعالى على إبراهيم لمفارقتها المذاهب الباطلة، قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١).

والذي يقطع به الباحث أن هذا مقام الخليل مع الكواكب كان مقام مناظرة لا مقام نظر والأدلة على هذا المحمل كثيرة منها:

أولاً: إتياء الخليل رشده صبياً قبل النبوة قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} {٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} {٥٢} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ} {٥٣} قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} {٥٤} قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ} {٥٥} قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} {٥٦} وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} {٥٧} فَجَعَلَهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} {٥٨} قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} {٥٩} قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} {٦٠} (٢).

ثانياً: وصف الله تعالى لخليله عليه الصلاة والسلام بكونه أمة في الخير والحق ميراً من الشرك، قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {١٢٠} شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {١٢١} وَآتَيْنَاهُ

(١) سورة آل عمران ، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥١ - ٦٠.

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {١٢٢} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ ابْعَثْ
مَلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {١٢٣} (١).

ثالثاً: أمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم باقتفاء ملة أبيه إبراهيم، قال تعالى:
{قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ} (٢).

رابعاً: خلق الله تعالى الناس على الفطرة، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً
فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (٣).

ومصادق هذه الآية في السنة ما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة، عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة) (٤)، وفي صحيح
مسلم من حديث عياض بن حماد؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله:
إني خلقت عبادي حنفاء) (٥).

فإذا كان هذا في شأن الخلق عامة، فكيف يستقيم كون إبراهيم الخليل الذي جعله

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠ - ١٢٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، قام بشرحه وتحقيقه محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، نشره وراجعه قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ط ١، ١٤٠٤هـ، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم الحديث ١٣٨٥، ج: ١، ص ٤٢٤.

(٥) مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، إدارة محمد عبد اللطيف، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٤٧ هـ، ١٩٢٩م، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ج: ١، ص: ١٩٦ - ١٩٩.

الله {أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١) بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسحابة المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا أدنى ريب.

خامسا: يقول تعالى: {وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} {٨٠} وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون {٨١} الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون {٨٢} وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم {٨٣} (٢)، وتقرير ذلك، وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظره بشبهه من القول، قال {قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} أي: تجادلوني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرتي وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه؟ فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! (٣).

سادسا: سباق قصة الكواكب يقطع بطلان الحمل على النظر والاعتقاد، وبيانه إن إراءة الخليل للملكوت السموات والأرض كانت لغاية الوصول إلى رتبة الإيقان من معرفة الله تعالى المناهية للشك والتردد الذي حملت عليه القصة الكريمة.

ولذلك قال أبو السعود: "ولعل سلوك هذه الطريقة في بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة إلهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلاناً واستحالة من الأول، فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله في حق عبادة الأصنام لتمادوا في المكابرة والعناد، ولجأوا في طغيانهم يعمهون، وقيل: قاله عليه السلام على وجه النظر

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٠ - ٨٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج: ٦، ص ١٠٠.

والاستدلال، وكان ذلك في زمان مراهقته وأول أوان بلوغه... وأنت خير بأن كل ذلك مما يُخِلُّ بجزالة النظم الجليل، وجلالة منصب الخليل عليه الصلاة والسلام^(١).

النموذج السادس: الموكلون بالرسالة الخاتمة بين المؤمنين والمرسلين والملائكة

ذكر المفسرون في الموكلين بحفظ الكتاب الحكم والنبوة في قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ} ^(٢) خمسة أقوال:

الأول: فإن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الأنصار.

الثاني: فإن يكفر بها أهل مكة فقد وكلنا بها أهل المدينة.

الثالث: فإن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الملائكة.

الرابع: أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله تعالى من قبل، وهم من ذرية الخليل عليه الصلاة والسلام.

الخامس: أنهم المؤمنون على مدى الزمان.

والذي يظهر للباحث منسجما مع دلالة السياق المقامي، هو القول الرابع، فإن يكفر بها أهل مكة فقد وكلنا بها قوما هم الأنبياء المذكورون في سباق الآية الكريمة ولحاقها، ومعنى توكيلهم بها توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها.

وهذا ما رجحه شيخ المفسرين الطبري، قال رحمه الله: "وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عني بقوله: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ}، كفار قريش {فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ}، يعني به الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله تعالى ذكره في الآيات قبل هذه الآية. وذلك أن الخير في الآيات قبلها عنهم

(١) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٣٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكون خبراً عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبراً عن غيرهم، فتأويل الكلام، إذا كان ذلك كذلك: فإن كفر قومك من قريش، يا محمد، بآياتنا، وكذبوا وجحدوا حقيقتها، فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رُسُلنا وأنباءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها".

النموذج السابع: تعذيب الكذابين والمستهزئين بين عذاب الموت والعذاب الأخرى؟

ذكر المفسرون في توقيت قول الملائكة للكذابين والمستهزئين في قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} ^(١) ثلاثة أقوال:

الأول: عند الموت، قال ابن عباس هذا عند الموت، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وملك الموت يتوفاهم.

الثاني: يوم القيامة.

الثالث: في النار.

والذي يظهر للباحث متسقا مع سياق الآية ولحاقها أن تلك الحالة هي عند الموت فلما ذم الظالمين، ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ} أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكُربته الشنيعة لرأيت أمرا هائلا لا يقادر قدره، ولا يعرف كنهه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

وهذا ما وظفه ابن سعدي في تفسير الآية اعتماداً على قاعدة السياق المقامي، قال رحمه الله: "{وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ}" إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيتها للخروج من الأبدان: "{أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}" أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل، وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقيل الموت وبعده^(١).

النموذج الثامن: إرسال الرسل بين الإنس والجن

اختلف المفسرون في الرسالة إلى الجن في قوله تعالى: "{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهَدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}"^(٢) على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الله تعالى بعث إلى الجن رسلاً من جنسهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً من جنسهم، وهو ظاهر الكلام.

الثاني: أن الله لم يبعث إلى الجن رسلاً منهم، وإنما جاءهم رسل الإنس، ولا يكون الجمع في قوله: "{أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ}" مانعاً من أن يكون الرسل من أحد الفريقين، كقوله تعالى: "{يَخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ}"^(٣) وإنما هو خارج من أحدهما.

(١) ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الثمان في تفسير القرآن، بدون رقم طبعة، ولا دار نشر، ولا تاريخ نشر، ص ٤٩٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٢. قال الشنقيطي رحمه الله: "واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: "{يَخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ}" سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به؛ لأنه مخالف لمخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله تعالى: "{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذَابٌ قَرِيبٌ مِّمَّا تُصِيبُ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مَلْحٌ أُجَاجٌ}" سورة فاطر، الآية: ١٢، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منها جميعاً بقوله: "{وَمَنْ كُلَّ تَلَكُّوْنَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَةً تَلْبِسُونَهَا}" سورة فاطر، الآية: ١٢ والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحاً، كما ترى" أضواء البيان، ج: ٢، ص ٢٤٧.

الثالث: أن رسل الجن هم الذين لما سمعوا القرآن {وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} ^(١). والذي يظهر للباحث متسقاً مع سياق القرآني كله، أن الرسل للجن لم يكونوا بحال من الجن، وغاية الأمر أن يكون الجن رسل لرسل البشر كما هو مصدق بآيات سورة الأحقاف، ولذلك قال بعض العلماء: {رُسُلٌ مِّنْكُمْ} أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه، كقوله: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} ^(٢)، وقوله: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها} ^(٣)، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} ^(٤) ^(٥).

وقال أبو السعود رحمه الله: "{مِّنْكُمْ} متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لرسل أي كائنة من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب إتياعهم، والإيذان بتقاربهما ذاتاً واتحادهما تكليفاً وخطاباً، كأنهما جنس واحد، ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر، وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم حيث نطق به قوله تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} {٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ} {٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِكم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} {٣١} وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٦.

(٣) سورة الشمس، الآية: ١٤.

(٤) سورة القمر، الآية: ٢٩.

(٥) الشنقيطي، أضواء البيان، ج: ٢، ص ٢٤٧.

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٣٢} (١) (٢).

النموذج التاسع: حق المزروعات يوم الحصاد بين الصدقة والزكاة

ذكر المفسرون في تحديد المراد بحق المزروعات في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (٣) ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الزكاة، فعلى هذا: الآية محكمة.

الثاني: أنه حق أوجه الله في أموال أهل الأموال، غير الزكاة المفروضة.

الثالث: أنه الصدقة المندوبة، وأكدت حقيقتها بتسميتها حقاً.

والذي يترجح للباحث استناداً على دلالة السياق المقامي، التي تقضي بكون الخطاب كان في العهد المكي، كما هو المرجح في عموم سورة الأنعام، أن المقصود بحق المزروعات هو الصدقة المندوبة، لا الزكاة المفروضة، وذلك لسببين:

الأول: أن الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة، كما هو ظاهر سياق الآية بسبقها ولحاقها.

الثاني: أن الزكاة لا تعطى يوم الحصاد وإنما تعطى يوم ضم الحبوب والثمار.

وأما القول الثاني أنه حق أوجه الله في أموال أهل الأموال، غير الزكاة المفروضة، فخلافاً للأصل، والظاهر لأنه يستلزم النسخ، ففي صحيح مسلم من حديث طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ نَائِرُ الرَّأْسِ نَسَمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩ - ٣٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٨٤ .

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١ .

وسلم - فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ)، فَقَالَ هَلْ عَلَى غَيْرُهُنَّ قَالَ: (لَا. إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ)، فَقَالَ هَلْ عَلَى غَيْرِهِ فَقَالَ: (لَا. إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ)، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الزَّكَاةَ فَقَالَ هَلْ عَلَى غَيْرِهَا قَالَ: «لَا. إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ» قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَتَقْصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ)^(١).

ولذلك قال أبو السعود رحمه الله: "{وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}" أريد به ما كان يُتَصَدَّقُ به يوم الحصاد بطريق الواجب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فإنها فُرِضَتْ بالمدينة والسورة مكية، وقيل: الزكاة والآية مدنية، والأمر بإيتائها يوم الحصاد لِيَهْتَمَّ به حينئذ حتى لا يؤخَّر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتصفيه^(٢).

النموذج العاشر: المجهولون خلائف الأرض بين الخلق وبين الأمة المسلمة

ذكر المفسرون في تحديد المراد بحق المزروعات في قوله تعالى: "{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}"^(٣) قولين:

الأول: أن الخطاب عام لكل من يتأتى منه الخطاب، ويدخل فيه دخولا أوليا المشركون.

الثاني: أن الخطاب خاص لهذه الأمة.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب بَيَانِ الصَّلَوَاتِ الَّتِي هِيَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، ج: ١، ص: ١٦٥ - ١٦٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، ج: ٢، ص ٢٩٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

والذي يترجح للباحث تقدمه بناء على دلالة السياق المقامي، التي تقضي بكون الخطاب كان في العهد المكي، كما هو المرجح في عموم سورة الأنعام، أن المخاطبين يجعلهم خلائف الأرض هم الخلق عامة، لا خصوص الأمة المسلمة، وذلك لسببين: الأول: أن الآية مكية، وظاهر سياق الآية بسباقها ولحاقها متوجه للعموم، ويدخل فيه المشركون دخولاً أولياً.

الثاني: أن تخصيص الخطاب بالأمة المسلمة، يُخَفِّتُ قوة العموم التي في السياق الختامي للسورة الكريمة، والتي بها ينعطف الختام على البدء.

وما أروع ما قاله الإمام الآلوسي في ترشيح ختام السورة الكريمة لخطاب العموم، قال رحمه الله تعالى: "{إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}" وفي جعل خبر هذه الجملة هذين الوصفين الواردين على بناء المبالغة، مع التأكيد باللام مع جعل خبر الأولى صفة جارية على غير من هي له ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه {غَفُورٌ رَحِيمٌ} بالذات لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء كما يشير إليه قوله سبحانه في الحديث القدسي: (سبقت رحمتي غضبي) مبالغ في ذلك فاعل للعقوبة بالعرض وبعد صدور ذنب من العبد يستحق به ذلك، وما أَلْطَفَ افتتاح هذه السورة بالحمد وختمها بالمغفرة والرحمة، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما إنه ولي الإنعام، وله الحمد في كل ابتداء وختام^(١).

* * *

(١) روح المعاني، ج: ٨، ص ٧٣ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد أتم علينا نعمته بتمام هذا البحث، لنقف به على موضوع هو غاية في الأهمية لمعرفة دور السياق الريادي في تحديد المعنى الخاص في النظم القرآني الجليل من خلال تطبيق السياق بنوعيه الدلالي والمقامي على سورة الأنعام، ويحسن بي وقد انتهيت من هذه الدراسة أن أذكر أهم نتائجها وتوصياتها.

وقد تمحضت الدراسة عن النتائج الآتية:

أولاً: أدرك المفسرون مفهوم السياق بمعناه الاصطلاحي الدقيق، وقدموا أفكاراً وممارسات سياقية متميزة، أكدها البحث التفسيري وأثبت جدواها في التنظير والتطبيق، وهذا يقتضي أن المفسرين هم رواد نظرية السياق باعتبارهم قد سبقوا علماء اللغة المعاصرين الذين تُنسب إليهم نظرية السياق بأكثر من ألف سنة.

ثانياً: وقد أثبت البحث أن مصطلح السياق من وجهة نظر الدراسات التفسيرية يشتمل على السياق الدلالي، والسياق المقامي الحاوي لكل ما يحيط باللفظ، أو النص من ملابسات، وأرادوا به سياق الحال، أي: حال المتكلم، والمخاطب، وموضوع الخطاب، ومكان حدوثه، وزمانه، والمناسبة التي قيل فيها. ومن المصطلحات التي استعملها علماء المسلمين قديماً، والتي تصب في مفهوم السياق حديثاً، مصطلح المقام، والحال، ومقتضى الحال، والقرائن لفظية، وغير لفظية).

ثالثاً: تلتقي آراء علماء اللغة المعاصرين مع آراء مفسري القرآن القدامى في ضرورة الاستناد إلى دلالة السياق لتحديد المعنى، وفهم دلالات الألفاظ والتراكيب والنصوص، وهذا يدل على صلاحية نظرية السياق وفعاليتها في تحليل النصوص وتفسيرها.

رابعاً: أثبت البحث أن لدلالة السياق أهمية كبرى في تعليل اختيار المفردات،

والصبيغ، فلكل مفردة أو صيغة في القرآن الكريم دلالة خاصة يقتضيها السياق.

خامسا: أشار البحث أنه لا يوجد ترادف، ولا تكرار في القرآن الكريم، فدراسة الألفاظ المقول بترادفها في ضوء السياق ينفي عنها مظنة الترادف.

سادسا: أثبت البحث أن اللفظ لا يدل في السياق إلا على معنى محدد، فالألفاظ قد تدل على أكثر من معنى خارج السياق، لكنها لا تدل في السياق إلا على المعنى الذي يريده المتكلم، ويفهمه المخاطب. بمعونة القرائن السياقية.

سابعا: أكد البحث أهمية الإفادة من الدراسة النصية في تحليل آيات سورة الأنعام وتفسيرها، وقد توصل البحث إلى أن التماسك النصي يعد من أهم مميزات نظرية النظم، إذ تشير نتائج التحليل النصي إلى أن السياق القرآني يعمل على تماسك النص من خلال التناسب بين الآيات ومرجعية الضمائر.

ثامنا: وجه البحث إلى أن القرآن لا يمكن أن تُسَرَّ أغواره، أو تنكشف دلالته على الوجه الأمثل إلا بمراعاة المناسبة والعلاقات بين آياته وسوره، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة السياق، وقد قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" مفاتيح الغيب، ج: ١٠، ص ١٤٥.

تاسعا: يكشف السياق بشعبيته الدلالي والمقامي مدي التحام النص القرآني، فتختص شعبة السياق الدلالي بالكشف عن علاقات النظم الداخلية ووجوه تناسبه وترابطه، لأن ترتيب آيات القرآن وسوره توقيفي، وتختص شعبة السياق المقامي بالكشف عن العلاقات بين النظم وما يحيط به من ظروف وملابسات، فقد أنزل القرآن منجماً على وفق الأحداث ومقتضيات الأحوال، ومتطلبات الدعوة.

عاشرا: إن قاعدة السياق الدلالي والمقامي تكشف عن خصيصة من أهم خصائص

الإعجاز القرآني، وهي ذلك التناسق العجيب بين الترتيب الزمني علي وفق ترتيب النزول، وبين ترتيب المصحف العثماني، وهذا التناسق يقودنا إلى القول: إن كل سورة قرآنية - وإن تعددت موضوعاتها - يربطها خيطٌ دقيق من التماسك والانسجام، بحيث يشكل كتلة واحدة متكاملة موضوعياً.

الحادي عشر: إن دراسة حركة الضمائر في الآيات القرآنية الكريمة وتتبّع مرجعياتها يقتضي الإحاطة بالسياق الدلالي والمقامي، أي إن دلالة السياق تعين على دراسة العلاقات والمرجعيات في النص القرآني.

الثاني عشر: أثبت البحث أن إدراك مقاصد القرآن الكريم الكلية، ومقاصد السور الموضوعية يسهم في تحصيل الوجه الأمثل للتفسير، وذلك بمراعاة حال المخاطب، والمخاطب، وموضوع الخطاب، وغرضه، وزمان النزول، ومكانه، وأسبابه، وكل ما يحيط بالنص من ظروف وملابسات.

الثالث عشر: برهن البحث على امتياز المنهج السياقي بميزات تجعله يتبوأ مكانة رفيعة بين المناهج التفسيرية منها أن يجعل المعنى سهل الانقياد للدراسة والتحليل، كما أنه لم يخرج مع ذلك في التحليل اللغوي عن دائرة اللغة، ولذلك فإنه ناج من النقد المصوب نحو مناهج تفسيرية كالمناهج الأدبي، والإشاري.

وأما التوصيات فهي:

أولاً: ينبغي للمؤسسات التعليمية خاصة العليا منها لفت الأنظار إلى سبق مفسري القرآن الكريم في مجال الدلالات السياقية، في ضوء ما يسطره علماء الغرب حول نظرية السياق الحديثة، وتوظيف ذلك الإسهام الكبير في دور الأمة المسلمة في الإنتاج الحضاري ضمن المجالات العلمية الساخنة اليوم، والتي يدعي فيها الغربيون أنهم من حقق سبق فيها.

ثانياً: تكثيف الدراسات التطبيقية في مجال المنهج السياقي، مما يسهم في تنقية النتاج التفسيري من الدخيل الذي تسرب إليه بقصد وبغير قصد.

وأخيراً أسأل الله تبارك وتعالى أن يمن علينا وعلى بلاد المسلمين بالإنعام، وأن يكرمنا بأسباب وجوده، وحصول آثاره، وانتفاء موانعه.

* * *

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الآلوسي، محمود بن شكري أبو الثناء شهاب الدين البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
٢. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، صحيح البخاري، قام بشرحه وتحقيقه محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، نشره وراجعته: قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ط ١، ١٤٠٤هـ.
٣. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، مصاعد النظر للإشراف عل مقاصد السور، قدم له وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه، الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
٤. الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد أبو زيد. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه، الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وشارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٥. ابن جزري، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصححه وخرج آياته، محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٦م.

٦. ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي القرشي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
٧. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه، د. زكريا عبد المجيد المنوفي، د أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
٨. الرازي، محمد بن عمر فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٩. الراغب، الحسين بن محمد أبو القاسم الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
١٠. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير باسم تفسير المنار، دار المنا، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٣٦٦هـ، ١٩٩٧م.
١١. ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، بدون رقم طبعة، ولا دار نشر، ولا تاريخ نشر.
١٢. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
١٣. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الشريعة، حرر دعاويه، وكشف مراميه، وخرج أحاديثه، ونقد آرائه عبد الله دراز، ضبطه ورقمه ووضع تراجمه، الدكتور محمد عبد الله دراز،

- المطبعة الرحمانية، القاهرة، مصر، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
١٤. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الحكيني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، تمويل مؤسسة سلمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
١٥. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم لتفسير، دراسة حققه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الرحمن عميرة، وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه، لجنة البحث والتحقيق العلمي بدار الوفاء بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
١٦. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، الروض لداني إلى المعجم الصغير للطبراني، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمير المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
١٧. الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل القرآن، دراسة حققه وعلق حواشيه، محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
١٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.
١٩. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
٢٠. ابن عطية، عبد الحق بن غالب أبو محمد الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق، الرحالة الفاروق، عبد الله بن إبراهيم

الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، محمد الشافعي الصادق الحناني، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر.

٢١. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٢٢. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شارك في تحقيق هذا الجزء محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٢٣. ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، تمويل مؤسسة سلمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٢٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمرو أبو الفداء القرشي. تفسير القرآن العظيم، أول طبعة مقابلة على النسخة الأزهرية، وعلى نسخة كاملة بدار الكتب المصرية، تحقيق: مصطفى السيد أحمد، محمد السيد رشاد، محمد فضل العجاوي، علي أحمد عبد الباقي، حسن عباس قطب، مؤسسة قرطبة، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٥. المجمع اللغوي، المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمعجمات إحياء التراث، مكتب الشروق الدولية، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٦. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح

النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، إدارة محمد محمد عبد اللطيف، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٤٧ هـ، ١٩٢٩ م.

٢٧. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الوسيط في تفسير الكتاب المجيد، تحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.

المواقع الالكترونية:

١. الشبكة العربية الأدبية.

<http://ar8i.net/vb/showthread.php?t=3205>

٢. الشبكة العنكبوتية على هذا الرابط.

<http://www.alukah.net/Sharia/1045/431/#ixzz2luorCdbq>

* * *